

أفكار تمهيدية من افتتاحية كتاب "وجع الكنيسة"

القديس نيكولا فيليميروفيتش

نقلته إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

إذا لم يكن للكنايس أي فضيلة سوى أنها حفظت المسيح كخزينة للعالم، فهي تتبرر بذلك. حتى لو كان ما كررته خلال القرون الماضية هو "يا رب! يا رب!" وحسب، فهي تقوم فوق العالم الدهري. على الأقل هي تعرف مَنْ هو الرب، بينما العالم لا يعرف.

قد تختفي "الكنايس"، لكن الكنيسة لن تختفي أبدًا. لأن عمل المسيح ليس "الكنايس" بل الكنيسة. علاوة على ذلك، إذا اختفت الكنيسة كمؤسسة، فلا يمكن أن يختفي جوهر الكنيسة. إنه مثل الأنهار والبحر والماء: عندما تختفي الأنهار في البحر، يبقى البحر، وإذا اختفى البحر في البخار، يبقى الماء. لو أن المسيح قصد في يوم من الأيام تشكيل الكنيسة كمؤسسة، فيكون قد قصد أن يشكّلها لا كغاية بل كوسيلة، كمثل قارب لجلب ركابه بأمان عبر محيط الحياة العاصف إلى مرفأ ملكوته الهادي.

كمثل الجسد في الحَمَام، هكذا النفس تتعري في الكنيسة لتغتسل. ولكن بمجرد أن نخرج، نلبس أرواحنا لإخفائها عن العين الفضولية. أليس من غير المنطقي أن نتجرأ على إظهار عيوبنا إلى الأكثر كمالًا، بينما نخجل من إظهارها لمن هم غير كاملين وقبيحين وغير طاهرين مثلنا؟ الكنيسة، مثل الحَمَام، تكشف معظم القذارة.

إن فكرة الكنيسة الأولية والأكثر وضوحًا هي جمع الخطيئة والخلاص. فالصلاة منفردة ومن أجل النفس أشبه بالأكل على انفراد دون اعتبار لجوع الآخرين.

عندما ترى الشمس رجل العلم أو الثروة أو السياسة، راکعًا في الصلاة مع الفقراء والمتواضعين، فإنها تذهب إلى راحتها مبتسمة.

لا تكمن القيمة الحقيقية لأي جماعة مسيحية في رخائها هي، بل في اهتمامها بإزهاة الجماعات المسيحية الأخرى. لذا، على سبيل المثال، تكمن قيمة البروتستانت في اهتمامهم بالكاثوليك بمحبة، والعكس صحيح.

باتباع المعيار المذكور أعلاه، نجد أن كل الجماعات المسيحية تكاد تكون بلا قيمة من جهة الروح، أي في ما يتعلق برعايتها المُحِبَّة غير العادية. إن قيمتها الفعلية مادية أكثر منها روحية، لأنها تقتصر على العناية بنفسها. أما الاستثناءات فهي منعشة مثل واحة في الصحراء.

الكنيسة والدولة مثل النار والماء. ما السبيل لاتصالهما؟ ففي حالة الاتصال، تموت النار دائماً تحت الماء.

في محاولتنا توحيد الكنيسة والدولة، نحاول توحيد ما فصله الله منذ بداية عصرنا. إن فصل الكنيسة عن الدولة لا يعني، كما يعتقد الكثيرون، فصل الروح عن الجسد؛ بل هو يعني الفصل بين روحين متعارضين تماماً غير مألوفين ومعاديين لبعضهما البعض.... لقد نجحت دودة الراحة والجمود البشري في التوفيق بين المسيحية والحكومات العلمانية الوثنية، مما أدى إلى شل الحركة الأكثر إلهية في تاريخ البشرية. اذهب إلى أسفل كل تلك الدعوات الذكية إلى وحدة الكنيسة والدولة، وسوف تجد أن محركها الأساسي هو دودة الراحة والجمود البشري. ليست المسيحية ملكية ولا جمهورية. إنها لا تهتم بالمؤسسات بل بالروح الذي يعيش فيها. المؤسسة الأفضل هي التي تمتلئ بروح المسيحية. من وجهة النظر هذه، قد تكون الأوتوقراطية أفضل من الجمهورية أو العكس.

لقد كانت المسيحية الحقيقية مختفية عنا حيث كما كان الحديد والفحم مختفيين عن رجال العصر الحجري. لقد مشوا على الحديد والفحم لكنهم استخدموا الحجر والخشب فقط. كذلك نحن نسير فوق المسيح وحوله، فيما لا نزال نثكل في حياتنا اليومية على الآلهة الوثنية القديمة. يقول البعض: اقرأ الكتاب المقدس! أكاد أقول: لا تلمسه لخمس سنوات، وقرأ أدياً آخرأ خلال هذه الفترة، ثم عد وقرأ الإنجيل مرة أخرى، وسترى عظمتة الحقيقية وقوته وحلاوته. معنى الإفخارستيا ليس الذكرى فقط بل هو نبوءة أيضاً. النبوءة هي أن الأرض كلها ستصبح جسد المسيح، لحمه ودمه، حتى مهما أكلنا وشربنا نكون نأكله ونشربه هو. يجب أن يكون هو طعامنا اليومي. أن نرى إلى كل طعامنا من خلال المسيح، فهو لن يظهر بمظهر الفريسة من الطبيعة بل بالأحرى يكون تضحية الطبيعة من أجلنا، فتذكرنا بتضحية المسيح، ومن خلالها نتذكر دعوتنا إلى التضحية. عليك أن تختار بين أن تكون فخوراً أو فقيراً في الروح. الأول يعني تدميراً صاخباً، والثاني يعني البناء الهادئ.

لا نكشف عن قيمتنا الحقيقية أبداً باستخدام حقوقنا بل من خلال قدرتنا على الخدمة والتضحية. أن يحصل الرجل على حقوقه أسهل من أن يفقد كبريائه. ما من شيء سام ولا لئيم في العالم كله إلا وجدت له تمثيلاً في نفسي، كما لم أجد شيئاً كنت فيه ممثلاً بالكلية.

إن أغنى وأقوى الناس، الذين نميل إلى أن نُعجب بهم ونقتدي بهم، هم أكثر من يشفق عليهم المسيح. اليوم، كما هو الحال دائماً، أصعب المهمات المسيحية هي تلك التي بين الأغنياء.

التضحية بدون تدمير تحوّل حياتنا العاصفة إلى يوم مقدس هادئ. نحن نملاً كل أيامنا بكلام عن أناس يكرهون التضحية أو عن غيرهم الذين يجسرون عليها. الاشمئزاز والإعجاب هما حمامان تستحم فيهما قلوبنا من شروق الشمس إلى غروبها. لا شيء يثير الاشمئزاز من شخص ما كسماعه يقول إنه غير قادر على التضحية. وإذا توجّهت هذه الجملة إلينا نشعر وكأننا قد خسرت معركة الحياة بأكملها.

قيمة النُظم الماورائية أنها للعلم أكثر منها لتقدم البشرية الأخلاقي. يمكنك بناء علم جديد على هيجل، أما على الرسول بولس وحده فيمكنك بناء حياة اجتماعية جديدة وسياسة عالمية جديدة. هل فكرت يوماً أن القديس بولس هو أعظم أنبياء الفطنة السياسية المرجوة؟

كل الإمبراطوريات التي قامت على أساس الحقوق قد هلكت أو لا بد أن تهلك. المستقبل هو لإمبراطورية القديس بولس، الإمبراطورية التي تأسست على خدمة المحبة.

إن صالبي المسيح الحقيقيين في عصرنا هم أولئك الذين يعتقدون أن إنجيل المسيح لا يمكن أن يؤخذ كأساس للسياسة العالمية. ألم تكن آخر كلماته للتلاميذ: اذهبوا إلى كل الأمم؟ إن التعبير الأخير والأسمى للمسيحية سوف يكون في العلاقات بين الأمم، لأن تعبيرها الأول كان العلاقات بين الأفراد من الناس. ما بين الأفراد كان المدرسة الابتدائية للمسيحية. لذا ما بين الأمم هو جامعتها.

أصل الأرستقراطية غامض كمثل ظلام الليلة الماضية. قد يكون الأرستقراطي العظيم في يومنا هذا من أصحاب أتعس الأرواح، فيما المتسول عند بابه من النبلاء. لكن احترموا كلاهما على قدم المساواة لعلمكم أن كليهما من نفس الأصل الملكي. الله الفائق السمو يسمي كليهما أولاده.

الأخلاق المسيحية، أي الخدمة والتضحية بالهجة، هي أسمى نتائج الإيمان الحقيقي بالله. من خط يربط كوكبنا بمركز الكون أكثر قُصراً من الخط الذي يمر عبر المسيح. إنه أقصر الطرق، كما أن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين هندسيتين.

العبودية تعني الخدمة الإلزامية؛ لذا الحرية تعني الخدمة الطوعية. الرجل أو الأمة المتريبان على الخدمة الطوعية لجيرانهما هما حقاً رجل حر أو أمة حرة. كل نظريات الحرية الأخرى هي أوهاام. الحرية التي تطالب بالحقوق وليس بالخدمة الطوعية تعني تنازلاً لا نهاية له يتوج جميع أبطاله بالتعاسة. لم تكن جمهورية بريكليس ولا النظام أوكتافوس الملكي دولتين للسعادة، إنما دولة القديس بولس لكل البشر، بوثيقة عظمي (ماجنا كارتا) واحدة للخدمة الطوعية، سوف تكون دولة الهناء العالمي.

كل إنسان هو ساحة معركة للعديد من الأرواح النجسة، التي تكون جريئة جدًا في غياب المسيح وخجولة جدًا في حضوره. كم من هذه الأرواح التي تجد فينا مسكنًا سهلاً، تجعل حتى الخزائير تغضب وتجري على الجرف الشديد الانحدار إلى البحر!

هناك مفهوم يقول بأن عقلية ميكافيللي وميترنينج وبسمارك وبيكونزفيلد يمكن أن تؤخذ كأساس للسياسة، في حين أن ذلك غير ممكن لعقلية المسيح. هذا المفهوم يتبناه حتى العديد من اللاهوتيين. ومع ذلك، فإن المسيح، دون كل هؤلاء السياسيين، بقي كقوة لا تموت، لأنه ببساطة الأصلح منهم جميعًا.

نظرت إلى الناس وهم يصلون ففكرت: هوذا الملائكة الساقطون! نظرت إليهم وهم يتشاجرون ببغض ففكرت: هوذا الشياطين القائمون!

الحيوانات قاسية ولكنها ليست مبتذلة. ومع ذلك، فإن الإنسان يفوقهما في القسوة والابتذال. إذا أُجبرنا على اختيار احد الشّرّين، يجب أن نفضّل القسوة على الابتذال.

كل أيامنا هذه تفسدها ذكريات الأمس وهموم الغد. وبالتالي فإننا ننزع الفردية عن أيامنا الحاضرة ونفرغها ونحفظها حتى تصير مكان اجتماع ضبابي للأمس والغد.

من وجهة النظر المادية، فإن أعظم شيء في هذه الحياة هو سرها. من وجهة النظر الأخلاقية، فإن أعظم شيء في الإنسان هو التفسير المتفائل لهذا السر. ما من تفاؤل عاقل خارج المسيحية.

لا يمكن لأي إنسان أن يكون طاغية ما لم يكن عبداً لبعض العيوب الأخلاقية.

لا يمكن لأمة أن تطغى على أمة أخرى ما لم تكن بعض الأوهام تستبد بها من قبل.

لا أحد في العالم حرّ إلا الذي يشعر بأنه أسير المسيح. هكذا سمى نفسه أعظم نصير للحرية في تاريخ البشرية: "بولس، أسير يسوع المسيح".

Source: The Agony of The Church. By The Rev. Nicholai Velimirovic, D.D. of St Savva's College, Belgrade. Student Christian Movement. Printed in Great Britain by Turnbull & Spears, Edinburgh. 1917